زينب (الزبّاء) ملكة تدمر

للاب سبستيان رتزقال اليسوعي

(تابع لما قبل)

١٣

لا خفاء ان سلطة ملكة تدمر قد امتدّت امتدادًا عظيمًا بعد ان فتحت جيوشها البلاد المصريّة فكانت حدود ممالك زينب تنتهي جنوبًا الى ضفّة النيل وشمالًا الى اقاصي آسية الصغرى وتحدُّها غربًا سواحل البحر المتوسط وشرقًا نهرا الفرات ودجلة (١. ومما رُقّي اسمها الى اوج المجد والعزّ انّها انفذت الرعب القوي في قلوب الملوك الشرقيين على اختلاف طبقاتهم واثبتت لها هيبةً شديدة في انفسهم فلم يتجاسر احد منهم ان يعادي سلطانة تدمر او يمنعها عن فتوحاتها. وهذا قول ليس فيه ادنى مبالغة تشهد على صحّته الاخبار القديمة لاسيما رسالة بعث بها اوريليانس قيصر الى مجمع الشيوخ حين باشر محاربة التدمريين في اواخر ملك زينب (٢

وكانت زينب عالية الهمّة شديدة السياسة قد نهضت باعباء التدبير نهوض حزماء الملوك وفضلائهم فاخذت رعيتها العظيمة ترتع في مراتع النجاح وبجانب السلام. واوّل ما اعتنت به سلطانة تدمر تزيين عاصمتها بما لا مزيد عليه من البهاء والجاه. فاضافت الى الآثار التي ابقاها سلفها من الملوك ابنيةً جليلة وحصونًا عجيبة تشهد على كبر نفسها وتوقُّد قريحتها. وهذا لا يناقض ما قد مرَّ بنا ان معظم الهياكل والابنية المدهشة التي يزورها اليوم المسافرون

---

١) راجع زوزيموس ١ : ٤٤ و ٥١. وزوناراس ١٢ : ٢٧. وتربيليوس كلوديوس ٢١. اعلم ان المؤرّخين الاقدمين قد اختلفوا بينهم بعض الاختلاف في وصف حروب زينب وتاثيها المادية. فاخذنا من رواياتهم ما يوافق الكتابات التدمرية وغيرها من الآثار القديمة المكتشفة حديثًا. (راجع Addison : *Damascus and Palmyra*, II p. 266 و V : p 33.) قبل ان سلطة زينب لم تثبت في شمالي مصر. وعلى كل حال لا ريب ان اوريليانس الذي بريع لهُ بغلاة القياصرة في تلك الاثناء (٢٧٠ م) لم يتم ان اقرّ لزينب بحق وراثتها على البلاد المصرية قاطبة فضرب في الاسكندرية نقودًا باسم وميلات ابنها شهادة على هذا الاقرار

٢) راجع رسالة اوريليانس الى مجمع الشيوخ كما دوّنها المؤرّخ تربيليوس *Trig. Tyr.* 29

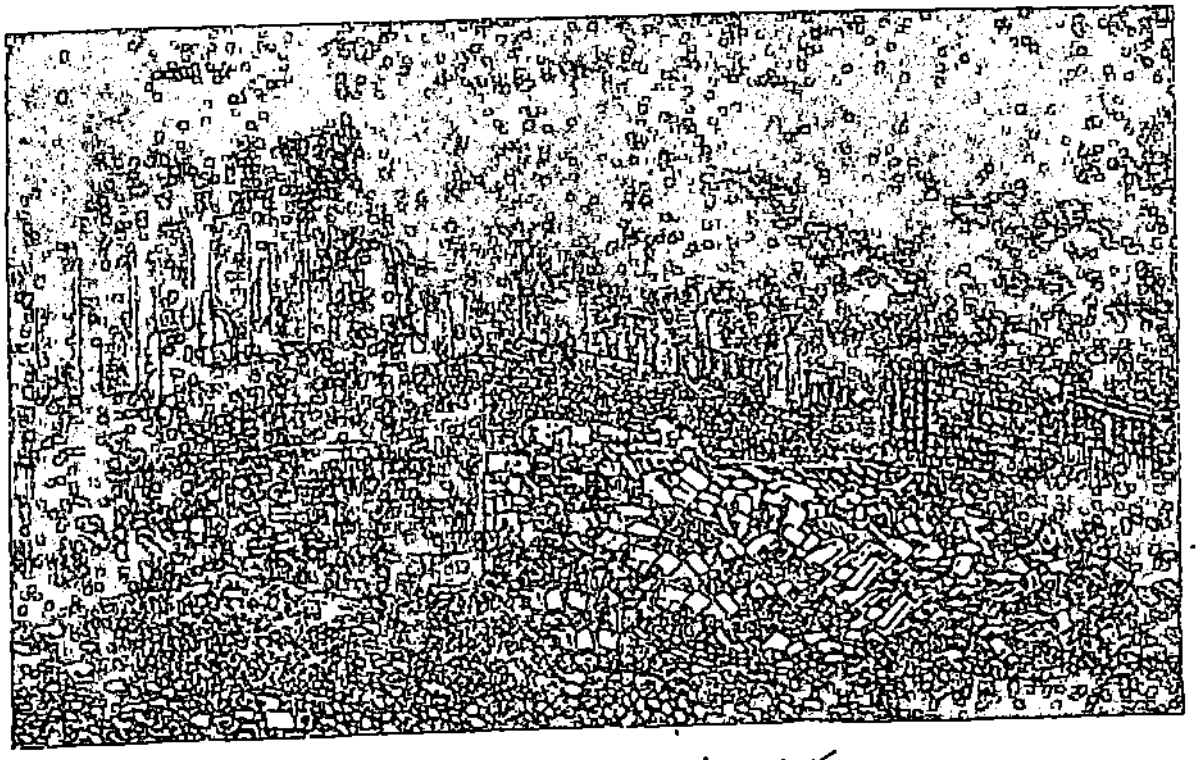

صورة هيكل الشمس في قدس من جهة الشرق (عن صورة شمسية)

لا يجوز نسبتها الى زينب برمّتها. لانّ لملكة تدمر من هذه الآثار نصيباً خلّد اسمها في الخافقين. كيف لا وتسمع اهالي الشام يعزون اليها كل ما فاتهم اصلهُ من الابنية القديمة. ومؤرخو العرب انفسهم قد حفظوا شيئاً من ذكر هذه الاعمال الحسنة اذ اجمعوا القول بانها ابتنت قصرين على ضفّة الفرات

فاذا جرّدنا رواياتهم من الخرافات التي رويناها عنهم في اوّل مقالتنا لا نجد في كلامهم الّا ما يوافق الدلائل التاريخية الراهنة. فان زينب قد شيّدت على ضفّة الفرات ليس قصراً فقط بل مدينة حصينة اطلقت عليها اسمها اليوناني فدعتها زينوبية. وكانت قد قصدت من بنائها تذليل مدينة قولوغيسية (Vologesias) المعروفة اليوم باسم كفيل التي شيّدها احد ملوك بني ارشك في اوائل النصرانية لاستجلاب الارفاق والبضائع من اقاصي الهند والشأم وآسية الصغرى (١ . وكانت مدينة زينوبية مشهورة عند العرب ايام الجاهلية. بيد ان الاعصار لم تُبقِ فخلف من آثارها الّا بعض الاخربة تُعرف اليوم بزليبية يزورها سيّاحٌ قليلون يتوجهون الى الفرات من تدمر او من السخنة(٢

ولم تكن زينب لتقتصر على تزيين حاضرتها وبناء بعض الحصون في البلاد المجاورة لها بل افرغت كنانة مجهودها على سعادة جميع رعاياها وخير الاقاليم المذعنة لملكها دون استثناء. واقوى دليل على ذلك عزمها على تعمير الطريق الممتدة من تدمر الى دمشق وبعلبك. فترى بالقرب من عين الفيجة ولبوّة بقايا قنيّ خليمة واخربة اخرى لم يكن الغرض من بنائها سوى ما قلنا (٣ . الّا ان ملكة تدمر لم تدم على عرش المشرق مدّة

---

١) ورد اسم هذه المدينة في الكتابات التدمرية على صورة (الجبا) وهي المدينة التي سماها الفرس وعرب الجاهلية بَلاشكرد او بَلاشكر او ولاشجرد. وقد ارتأى المستشرق بلو (Blau) (في المجلة Z D M G., 1873, p. 337) انها واقعة في مكانٍ كان يُعرف في القرون المتوسطة (بالوَلَجة). الّا اننا نفضل رأي العلامة نولدك (Z D M G : 1874, p. 93) الذي قال ان بلاشكرد انما هي مدينة (أَلَيْس) الوارد ذكرها مراراً في تاريخ الطبري. وعلى كل حال فانّ لمدينة القديمة آثاراً باقية في قرية كفيل الحالية على نهر التهدية وموقعها جنوبي بابل على مسافة اربع ساعات منها. (راجع خارطتنا)

٢) وبازاء زليبية الحالية على ضفة الفرات اليمنى توجد اخربة اخرى باسم حَلَبيّة ولعلّها هي القصر الثاني الذي نسب العرب بناءهُ الى زينب

٣) (راجع ص ٥٩٠)

كافية لتتميم هذا العمل الجليل الفائدة فاخلى الدهر بكلكله على هذه الآثار وطمس محاسنها

واما اعتناؤها بحسن حال الطرق وافتتاح الشوارع الجديدة الوعرة فامرٌ لا مراء فيه. فقد اكتشفت علماء العاديات عمودين نُصبا للدلالة على مسافة الطريق ميلًا ميلًا عليهما اسم زينب واسم ابنها وهملات. واول هذين العمودين قريب من الجبيل والجسر الواقع على وادي الندار والثاني ببرج الريحان شمالي الجبيل (١

وفوق كل ذلك قد ابقت سلطانة تدمر آثارًا اعلى شأنًا واقامت سوق الآداب في عصر غلب عليه كسادها. ولو عاش العقلاء الذين ضُربت بهم الامثال وعُدمت لهم النظراء والامثال لتعلّموا منها غوامض الحكمة وتلقّفوا مكارم الاخلاق. فان زينب كانت عاقلة لبيبة قد نشأت في الآداب وتخرجت في العلوم فكانت تعرف علاوةً على لغتها الوطنية اي التدمريّة كلاً من اللغات المصريّة واليونانية واللاتينية (٢. وكانت قد استغصت مطالعة اخبار الاولين وتواريخ الاقدمين وتبحّرت في تراجم مشاهير ملوك اليونان كذي القرنين وسلاطين رومة العظام. وتُخبر عنها انها بعد التأمل والنظر الطويل في سير الملوك ألّفت بخطّ يدها كتابًا اختصرت فيه تواريخ الامم الشرقية. ومما تنسّت به ذرى الشهامة وشقّت غبار مَنْ سلفها على عرش تدمر انها صرفت جلّ اهتمامها الى حشد بعض العلماء والبلغاء والنحاة وغيرهم من فضلاء عصرها فجعلتهم أسرى فضلها واجزلت لهم الصلات والعطايا (٣

واوّل من نخصّ منهم بالذكر كَيْكِوَاتيس الصوري. قال فوبيسكوس المؤرّخ (*Aurel.* 4): «انهُ كان أعلم الكتبة ومتقدّم المؤرّخين اليونانيين في زمانه» فالّف بعد خراب تدمر ترجمة أوريليانس قيصر الذي كسر صولجان زينب. ومنهم لوپركوس البيروتي اللُّغوي والفيلسوف كان مولدهُ في بيروت ايام غاليانس قيصر وألّف على عهد زينب

١) راجع C. I. G, 4503 b و W : 2611 و V : p. 31

٢) قيل ان زينب تأدبت في الاسكندرية وان امها كانت مصرية الاصل فلذلك فقهت اللغتين المصرية واليونانية. (راجع Wright : *op. c.*, p. 131) ولمّا ذلك حملها على ان تنتسب الى كليوپاترة المصرية. ومع كل ما بذلت زينب من الجهد في تنشيط رعاياها على اقتباس آداب اليونانيين وعلومهم فلا نظنّ انّها فازت بالمرغوب لان لنجينوس الذي سيأتي ذكرهُ قد شكا لصديقهِ پُرفيريوس قلّة النسّاخ اليونانيين في تدمر (راجع پرفيريوس *Vita Plot.* 19)

٣) راجع تريبيليوس *Trig. Tyr.* 29

التآليف العديدة في النحو والادب والتاريخ والفلسفة (١ . ومنهم بُرْسانياس الدمشقي الذي دعاهُ مَلالا « افضل المؤرّخين واعلمهم » (٢ . ومنهم ايضاً نيكوماخوس وُلد في احدى مدن سورية وقد اشتهر في العلوم التاريخية . قيل انهُ ألّف ايضاً ترجمة اوريليانس قيصر . الّا انَّ ذلك ليس بامر ثابت وعلى كل حال فمما لا مرية فيه ان هذا العالم قد انتقل الى تدمر فاستقرّ فيها مدةً . ولنا في ترجمته بعض التفاصيل سنوردها في موضعها (٣

١٤

على ان اشهر الكتبة الذين قد حلّت ايادي زينب عليهم انما هو كاسيوس ديونيسيوس لُنجينوس الفيلسوف الذي طار ذكرهُ في الآفاق وأُشير اليه بالبنان لدقّة انتقاده وصفاته النادرة وآدابه الحسنة ومعارفه العديدة فلقّبهُ معاصروهُ لذلك بالكتبة الحيَّة وكنز العلوم . قال اوناپيوس في كتاب تراجم الفلاسفة (الفصل الثاني) : وكان لنجينوس ذا عقل نيّر وذوق سليم يميط الحجاب عن محاسن التآليف ويهتك ستر سيئاتها . قيل انهُ عُهد اليه انتقاد كتب الاقدمين ففاز على اقرانهِ بالسهم المعلّى في هذا السبيل المتوعّر »

كانت ولادة لنجينوس في مدينة حمص وفقاً لرأي جمهور المؤرّخين ولا يُرينا شكوك البعض في صحّة ذلك اذ استندوا الى ما جاء في تاريخ ڤوپيسكوس بان لنجينوس لم يعرف السريانية وهي لغة اهل حمص في ذلك العهد . بيد انَّ ڤوپيسكوس لم يذكر اصل لنجينوس وانّما تعجّب من كونهِ قد جهل لسانهُ الوطني . وزد على ذلك برهاناً آخر وهو ان افرونتونيدة والدة لنجينوس كانت من اهالي حمص وكذلك اخوها افرنتون الذي عُلم

١) راجع سويداس في قاموسه التاريخي . قد ألّف لوبركوس الكتب الآتية : ١ً كتاب النظم ٢ً كتاب الطاووس ٣ً كتاب السرطان البحري ٤ً كتاب الديك ردًّا على افلاطون ٥ً كتاب بناء ارسيتوه (المدينة المصرية القديمة المعروفة بشودو او مدينة التماسيح) ٦ً كتاب الآداب الاثينية ٧ً كتاب صناعة النحو ٨ً كتاب التوليد في ثلاثة عشر فصلاً . وجميع هذه التآليف قد استولت عليها يد الضياع

٢) راجع Const. Porphyr. : *Them.* I و Malala : *Chron.* p. 37,119, 248 و Steph. Byz., ... Δῶρος

٣) راجع ڤوپيسكوس ٢٧ . والمظنون ان نيكوماخوس هذا هو الذي زوّق ترجمة اپولونيوس الطياني وصرّف في نسخة فيلستراتوس (راجع سيدونيوس ٨ : الرسالة الثالثة و Vossius : *Hist. Græc.* II. 16) . ويجوز ان نضيف الى جميع هولاء الكتبة نيوكليوس اوثيون الساقزي (اي من جزيرة Chio) الذي ابقى لنا كثيره من معاصريه سيرة اوريليانس

الخطابة في اثينة فعُرف بالحمصي (١ . ومع ذلك فلا ننكر ان لنجينوس ربَّما غادر بلاد الشام منذ نعومة اظفاره فاصبح من ثمَّ قد نسي لغتهُ الاصلية اي السريانية . فلمَّا ترعرع همَّ بتلقُّن العلوم فتوجه الى قيصرية فلسطين حيث درس الفلسفة على اورجانوس المعلم الشهير . ثم سار الى بلاد مصر فاخذ عن مشاهير علمائها الوثنيين كأمونيوس سقَّاس وبلوتينوس . ثم رحل الى اثينة وتقلَّد فيها تدريس الفلسفة . وفي غضون ذلك ألَّف الكتب العديدة التي يذكرها المؤرِّخون (٢ . غير انَّهُ لسوء الحظ فُقدت في كرور الأيَّام اللهمَّ الَّا كتاب واحد فَرْد يُعدّ من افضل تصانيف الاقدمين واشهرها شرقًا وغربًا اعني بهِ كتاب الايغال (Le Sublime) موضوعهُ بيان المعاني المُدرِكة الغاية القصوى من البلاغة (٣

فلمَّا وصل لنجينوس الى تدمر استقبلتهُ زينب استقبالًا لائقًا بمقامهِ الرفيع بين علماء عصرهِ وجعلتهُ من ندمائها وكانت ترتاح الى مشورتهِ في الامور الادبية وتطلب رأيهُ في المباحث الفلسفية والسياسية . والحق يقال ان لنجينوس كان اجدر بمثل هذا الاكرام ممَّن سواهُ لسموّ عقلهِ وعزَّة نفسهِ . فانهُ ليس فقط لم يبغض الديانة المسيحية كما فعل صديقهُ پرفيريوس بل اقرَّ لها بالفضل واجلَّها اجلالًا عظيمًا . قال في كتاب الايغال يصف الاسفار الكريمة لاسيما

---

١) راجع سويداس لنجينوس

٢) قال پروفيريوس في ترجمة بلوتينوس ان لنجينوس ألَّف اربعة تآليف : كتاب الاصول وكتاب حبّ الآثار القديمة وكتاب الغايات وكتاب الاختبار . وقال سويداس انهُ ابقى كتبًا كثيرة في فنون الادب . وقال اوناپيوس في ترجمة پرفيريوس ان الاقدمين قد اخذوا عنهُ عدَّة مقالات مختلفة المواضيع

٣) اعلم ان بعض العلماء من المحدثين قد انكروا نسبة هذا التاليف الجليل الى لنجينوس مستندين على برهانين : اولهما ان اسم المؤلف لا يظهر صريحًا في النسخ القديمة . والثاني ان القدماء من الكتبة والمؤرِّخين لم يذكروا هذه النسبة الَّا نادرًا . وبناء على ذلك فقد زعم البعض ان كتاب الايغال انما هو تصنيف ديونيسيوس الهاليكرناسي . وهذا زعم لا سند لهُ لان اساليب الانشاء في التأليف المذكور غير اساليب ديونيسيوس في باقي تصانيفهِ . وادَّعى آخرون ان كتاب الايغال ينتمي الى پلوترخوس . وهذا قول لا يخلو من ظاهر الصحَّة لان ما اوردهُ پلوترخوس من التآليف يشبه شيئًا كبيرًا الكتاب الذي نحن بصددهِ من حيث الانشاء . (راجع Jules Simon : *Hist. de l'Ecole d'Alexandrie*, II p. 53) الَّا ان جميع براهينهم واهية لا تغنّي كافية للغرض المقصود . وعندنا ان لنجينوس هو حقيقةً مؤلف هذا الكتاب المشهور الذي قد فتن ملكة تدمر ونبَّه افكارها الى المباحث الادبية الفائقة والامور الدينية العالية

التوراة : « ان هميروس الشاعر بذل وسعهُ ومجهودهُ ليجعل الناس آلهةً والآلهة اناساً . . . . واما موسى الكليم صاحب الشريعة العبرانية فلا اراهُ انساناً بسيطاً بل رجلاً عجيباً اثار الله عقلهُ اذ قد تصوّر عظمتهُ تعالى وقدرتهُ تصوّرًا لا مثيل لهُ » (كتاب الاينال الفصل السابع)

هذا ومن المقرَّر ان زينب لم تكن لتدع نديها وناصحها وكاتبها الحكيم عن رأيه في الشريعة الالهية ولعلّها هي التي القت في قلب لنجينوس محبَّة الكتاب الكريم وقد ارتأى القديس اثناسيوس (١ انَّ ملكة تدمر كانت تدين باليهودية . وقول القديس المذكور جدير بالاعتبار فان عدد اليهود كان قد كثر في عاصمة زينب منذ ابتداء النصرانية لاسيما بعد ان خرَّب تيتوس قيصر اورشليم سنة ٧٠ بعد المسيح . ففي تلك الاثناء هجر جمٌ غفير من اليهود اوطانهم وتفرَّقوا في عدة مدن اجنبية من المدن المذعنة لدولة الرومان فاقاموا فيها مستعمرات لم يمرّ عليها الَّا القليل من الزمان حتى اخذت تنمي وتنتشر لا سيّما في الاقاليم الشرقية (٢ . وقد اتت الكتابات المكتشفة في تدمر مؤيّدةً لذلك تأييدًا لا مردَّ عليه اذ قد ورد فيها اسماء عديدة عبرانية بالخط التدمري لا بل بالخط العبراني عينه (٣ . قال بعض المؤرّخين : ان عدد اليهود في ايام زينب قد بلغ نصف جملة اهالي تدمر . وهذا قول لا يخلو من المبالغة لان العرب واليونان وغيرهم من الشعوب المجاورة لتدمر لم يكن عددهم اقلّ من عدد اليهود في حاضرة زينب . وعلى كل حال فلا يُنكر انَّ اليهود قد الَّفوا في تدمر مستعمرة معتبرة وهم يتقضون فيها فروض ديانتهم بكل حرّية كسائر السكّان على اختلاف اديانهم ومللهم .

---

١) راجع القديس اثناسيوس *Epist: ad Solit.* وقد جاء مثل هذا القول في تاريخ مختصر الدول لابن العبري (طبعة الاب صالحاني ص ١٢٩) . راجع ايضاً Milman : *History of the Jews*: III, p. 175

٢) راجع Derenbourg : *Essai sur* و Lévy : *Beitrag. zur Gesch. d. Jud.* 294 *l'Hist. et la Géogr. de la Palest.*, I p. 22, 224 . وقد اخبر في القرون المتوسطة الرباني بنيامين التوديلي انهُ وجد في تدمر سنة ١١٧٣ مستعمرة من اليهود يبلغ عددهم ٢٠٠٠ نفس . (راجع El. Reclus : *Géog.* IX, p. 792

٣) (راجع W : 2619 و V : 13, 65)

ومن الواضح ان زينب التي قد رزقها الباري من جودة العقل ما جعلها باقعة زمانها وفريدة دهرها لم ترضَ بديانة الوثنيين ومذاهبهم الباطلة وخرافاتهم الشنيعة واستنكفت من كفر الزنادقة والقائلين بعدم وجود الله تعالى. فكانت من ثمَّ مستعدَّة لقبول الدين الموسوي او على الاقلّ لتعلُّم الشريعة البرانية التي قد انتشرت انتشارًا عظيمًا في المدن الشرقية منذ ظهور الترجمة اليونانية المعروفة بالسبعينية (ستأتي البقية)

عيد انتقال العذراء

شرحٌ تعليمي وتاريخيّ لهذا العيد

للخوري ميخائيل ألوف

يُفهَم بلفظة انتقال بعث العذراء القديسة بعد موتها ورفعها الى السماء ظافرة بالنفس والجسد وها نحن ذا نبسط الكلام في هذه القضية. اوّلًا عن حقيقة سرّ هذا الانتقال. ثانيًا نروي ما نُلمُّ به عن ظروفه الزمنيَّة والمكانية. ثالثًا نبيّن تاريخ هذا العيد المرتّب من الكنيسة احتفالًا بتذكار بعث امّ الله المجيد

١ حقيقة سرّ انتقال العذراء

اما في حقيقة الانتقال فنقول: ان بعث البتول القديسة الجسدي ليس هو عقيدة دينية ولا تعليمًا لاهوتيًّا طالما لم تَرَهُ موضوعًا لتحديد خاصّ البتَّة. ومع ذلك لا يُنكر ان الكنيسة سندتهُ وعزَّزتهُ كما روى بارونيوس في شرحه على مجموع تراجم القديسين الروماني في اليوم ١٥ من شهر آب حيث قال: ان كنيسة الله اميل الى القول بان سيدتنا مريم العذراء انتقلت الى السماء بجسدها ويستبين لنا ذلك بطريقتين مختلفتين وهما كيفية اعتبار الكنيسة لمجمَل اراء المعلّمين اللاهوتيين ونظام الطقوس (الليتورجيا)

امَّا إجماع آراء المعلّمين المدرسيّين فلا نروم لنحجّ بالبرهان عليه طالما لا يخفى على بصيرة من طالع اقوالهم اتفاقهم في التعليم بالانتقال الجسدي. ومن نروم ما لا يلزم رواية ما ورد في تآليفهم من الشواهد في هذا الموضوع. ومما يجدر بالاعتبار كون اعتقادهم صادرًا عن صدى صوت الكنيسة واعتقادها اذ انهم يلقون التعاليم ويدرّسون القضايا اللاهوتية في ظلها وتحت مراقبتها الدائمة وهي باطلاقها لهم الحرّية في المحاماة عن سرّ الانتقال تمتع